طبيعة البـــلاد العربية (*)

للدكتور جواد علي

على الرغم من الموقع الممتاز الذي تشغله البلاد العربية في وجه الكرة الأرضية ، وعلى الرغم من الأهمية العسكرية التي تتمتع بها هذه البلاد باعتبارها قنطرة عظيمة تصل بين قارات ثلاث هي قارات العالم القديم ، فإنها كانت ولا تزال قليلة السكان جداً بالنسبة إلى سعة مساحتها واتساع أرضها ، وفيها بقعة كبيرة تكاد تكون خالية من السكان تتغلب عليها الطبيعة الصحراوية ، هي البقعة المعروفة بالربع الخالي ، وحولها منطقة واسعة قليلة السكان كذلك . ويغلب على هذه المناطق الجفاف والتغير السريع في درجات الحرارة بين الليل والنهار تغيراً يؤثر في طبيعة السكان تأثيراً كبيراً ، فيصعب على الإنسان والأجسام الحية تحمله .

على أن في الروايات اليونانية القديمة وفي المصادر السريانية والعربية ما يشير إلى أن بعض هذه المناطق الصحراوية الجرداء في الوقت الحاضر لم تكن في السابق على ما هي عليه الآن ، بل كانت مخصبة ممشبة كثيرة الكلأ والماء ، معتدلة نوعاً ما في درجات الحرارة . ولم يكن هنالك بطبيعة الحال فروق كبيرة بين الحرارة والبرودة في الليل والنهار ، وأنها كانت عامرة توجد فيها المدن المأهولة والقرى .

ونلاحظ في الوقت الحاضر آثار أنهار وعيون ونبات وواحات لا بد وأنها كانت مأهولة معمورة ، ثم تغير الطقس فيها وحدثت فيها كوارث طبيعية دعت إلى هجرة سكانها عنها وإلى تحولها إلى تربة صحراوية . ولما جاء الإسلام كانت هذه الأماكن نسياً منسياً ، فتصور الناس أنها من أعمال قوم عاد أو من أعمال الجن[1] .

وقد عرف أكثر الرواة العرب مثل تلك الانقلابات الطبيعية والتقلبات الجيولوجية ، فأشاروا إليها فقالوا إنما حدث ما حدث انتقاماً من تلك الأقوام القديمة والشعوب التي أجابت داعي الهوى وكفرت بأنعم الله فأذاقها الله سوء العذاب[2] .

وفي القرآن الكريم — وهو أصدق مرجع بين أيدينا — إشارات كثيرة إلى تلك الأقوام التي عاشت في الأيام الخالية في شبه جزيرة العرب تؤيد هذا الرأي وتقويه . ففي كتاب الله آيات مفصلة عن عاد وإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها البلاد[3] وقوم ثمود الذين جابوا الصخر بالواد[4] . وعن الأيكة[5] . وردت عرضاً على سبيل القصة والموعظة .

وقد عرض المفسرون لهذه الآيات وأطنبوا في وصف تلك الأماكن والمحلات ، وذكروا شيئاً مما كان قد رسخ في

(*) من كتاب « العرب قبل الاسلام » للدكتور جواد علي لم يطبع بعد .

ينكر عليه ابن المسيب . وهو القائل[1] :

كتمتَ الهوى حتى أضر بك الكتم
ولامك أقـــوام ولومهم ظـــلم
ونم عليك الكاشحون وقبلهم عليك الهوى قد نم لو نفع النم
وزادك إغراء بها طول بخلها عليك وأبلى لحم أعظمك الهم
فأصبحت كالنهدي إذ مات حسرة على إثر هند أو كمن سقي السم[2]
ألا من لنفس لا تموت فينقضي شقاها ولا تحيا حياة لها طعم
تجنبت إتيان الحبيب تأثماً ألا إن هجران الحبيب هو الاثم
فذق هجرها إن كنت تزعم أنه رشاد ألا يا ربما كذب الزعم
ألا إن هذا هو الشعر !

البقية في العدد القادم

علي الطنطاوي

(١) أمالي القالي .

(٢) قال البكري في اللآلي ، هذا من القلوب كخرق الثوب السمار وترجمة النهدي هذا في الأغاني (١٩) .

---

(١) mortizy arabia p, 25 . المسعودي ج ١ مروج ص ٩٤ (طبعة أوربا) . النقائض ٢٨٩ ، ٤٠٢ .

(٢) mortizy p, 28

(٣) القرآن الكريم سورة ٨٩ آية ٧

(٤) القرآن الكريم سورة ١١ آية ٩٦ وسورة ٢٢ آية ٤٢ وفي مواضع أخرى .

(٥) القرآن الكريم سورة ١٥ آية ٧٨ وسورة ٢٦ آية ١٧٦ سورة ٣٨ آية ١٣ سورة ٥٠ آية ١٤ .

ليلتهم عن تلك الأقوام . وهى صورة وإن كان رواء الوضع يغلب عليها ، ومادة الخيال فيها خصبة ، إلا أنها صورة مهما قيل بها فإنها مستمدة من واقع قديم تؤيده الآثار والتجارب العلمية الحديثة .

وكانت عناية الأهالى بالسدود عظيمة على ما يظهر من آثارها إلى هذا اليوم . فعلى تلك السدود التى كانت تحافظ على مياه الأمطار أو مياه الأنهار والعيون كانت تتوقف حياة الأرض والسكان . والظاهر أن الناس فى ذلك الوقت كانوا على علم بأصول خزن المياه كالذى نشاهده من آثار سد مأرب ، ومن آثار السدود الأخرى فى اليمن أو قرب يثرب فى الحجاز (المدينة) وفى أرض بنى سليم . وكانت تعرف بأسماء مختلفة تختلف باختلاف القبائل المجاتها فتعرف باسم « مسك للماء » أو « مسد » أو سد « مساك للماء[1] .

ولم تخل البلاد العربية الشمالية من السدود[2] . وقد استمر العرب على إنشاء السدود حتى بعد تدهورهم فى العصور الجاهلية التى سبقت الإسلام واتصلت به بل حتى فى العصور الإسلامية كالعصر الأموى[3] .

وامتازت منطقة يثرب بكثرة ما أنشىء فيها من النواظم والسدود والترع الفنية . ففى وادى بطحان وهو واد من أودية المدينة سد للماء . وفى وادى العقيق سد آخر عند جبل الحوران[4] وثالث فى وادى محزول وقد كان حتى زمن الرسول[5] . ثم سد رابع هو سد معونة قرب الأرحاضية جنوب المدينة[6] ، وخامس فى وادى أظم[7] .

وحتى نجد لم تكن لتخلو من هذه السدود[8] . وقد وجدت السدود بكثرة فى جنوب الحجاز[9] ، وفى أراضى قبائل هذيل وبنى سليم . وقد حافظت أراضى بنى سليم على خصبها وإنباتها حتى العصر العباسى . ولما أهمل أمرها فى هذا العهد بسبب الفتن والكوارث السياسية تحولت منذ هذا الوقت إلى أرض قاحلة صحراوية غادرها الناس وعافوها حتى غدت اليوم من المناطق المظلمة القفرة التى لا تزار[1] .

وقد اشتهرت بنو سليم على ما يظهر بنشاطها وبذكائها الخارق ، فابتكرت ولا شك طرقاً فنية لاستنباط الماء وخزنه إلى وقت الحاجة . فلما أراد الحجاج حفر آبار على طريق الحج لم يجد من يحسن حفر الآبار واستخراج الماء غير رجال هذه القبيلة[2] .

وطبيعى أن يكون للعرب علم خاص بطرق استنباط الماء وإقامة الحواجز ، وكيفية حفر الآبار والتعرف على نوع الأراضى التى يمكن استخراج الماء منها وإلا فكيف يعقل أن تنشأ هذه الحواجز وأن تحفر تلك الآبار لو لم يكن لهم علم بذلك ؟ ثم إن النصوص اليمانية التى عثر عليها حتى الآن وهى قليلة تؤيد هذا الرأى وتدعمه[3] .

وقد انتقل هذا الفن إلى المسلمين فظهر نفر من العلماء فى العصرين الأموى والعباسى نظموا صرف المياه وكيفية السيطرة عليها وتوزيعه . وألف بعضهم فى « كتب المياه » وفى إحياء الأراضى « الموات » وقد أضافوا إلى معلوماتهم العربية الخالصة ما أخذوه عن الأعاجم من آراء ونظريات وما قرأوه فى كتبهم من أبحاث[4] .

على أننا نسمع فى نفس الوقت أصواتاً ترتفع من جوف البلاد العربية ومن مختلف الأنحاء تشكو الجفاف وتتألم من تراكم الأتربة فى مجارى الأنهار . ومن جفاف مياه الواحات فجأة ومن موت النباتات والأشجار وتحول الأرض إلى صحار رملية ، وقد استمرت تلك الشكاوى بدون انقطاع حتى القرن التاسع عشر .

وقد تكون من بين أسباب هذا الجفاف وتحول المياه أسباب

(١) moritzy p, 27 . البكرى ٤٦٣ ياقوت جـ ٣ ص ٥٦٤
(٢) moritzy p, 27
(٣) نفس المصدر أيضاً البكرى ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٤) moritzy p, 27 . البكرى ص ٤٦٢ ياقوت جـ ٢ ص ٢٤٩
(٥) moritzy p, 27 . البلاذرى فتوح ، ١٠ ، ١٣ .
(٦) moritzy p, 27 . ابن سعد ٢ ، ٢١ .
(٧) moritzy p, 27 . ياقوت جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٨) moritzy p, 27 . البكرى ٢٠٥ ياقوت جـ ٣ ص ٧٣٨
(٩) moritzy p, 27

(١) البكرى ٤٦٧ ياقوت جـ ١ ص ٨٦٠ جـ ٢ ص ٨٥٥ . moritzy p, 27
(٢) البكرى ص ٢٠٧ moritzy p, 28
(٣) moritzy p, 26
(٤) moritzy p, 26 . راجع أيضاً الفهرست لابن النديم (الأوربية) ٢٦٩ . وص ٥٥ .

سياسية نشأت عن تضعضع مركز الخلافة والثورات والانقلابات العسكرية الكثيرة التي كانت تديرها الأسر الشريفة أو أصحاب القوة والبسطة من الأعاجم وأصحاب العساكر والأتباع . فلم يعد في وسع الحكومة الاهتمام بشؤون الزراعة والري وسائر الشؤون الأخرى . وقد تكون عوامل طبيعية وقتية أو طوارىء طبيعية فجائية سببت انحباس الأمطار وإلى غور المياه إلى الأعماق . على كل فهي كوارث مزعجة حولت تلك الأماكن المأهولة إلى أماكن صحراوية رملية لا يمكن لأحد النزول بها لعدم ملاءمتها لشروط الحياة[١] .

وقد خلقت هذه الكوارث الطبيعية والتقلبات الجيولوجية التي حدثت في الأزمنة التي سبقت الإسلام قصصاً مختلفة وحكايات توارثها الناس جيلا بعد جيل عن هلاك تلك الأقوام وتبدل وجه المعمورة وتحول الأرض المأنوسة إلى أرض موحشة . وقد تردد صداها في الكتب العربية ؛ فني كتب الأدب والتاريخ سيل من هذه الأخبار عن عاد وثمود وطسم وجديس ووبار[٢] .

تكون الكوارث الطبيعية في بعض الأوقات على صورة انحباس مياه الأمطار مدة طويلة مقرونة برياح شديدة جافة حادة تحرق المزروعات ، وتجفف الأرض . وقد يعقب ذلك هزات أرضية لا تترك شيئاً في تلك البقعة التي تتحول عندئذ إلى صحراء جرداء[٣] يتركها سكانها إلى منطقة أخرى تصلح للزراعة والرعي والعيش .

يقول المستشرق موريتس لا بد وأن تكون هنالك حقيقة تاريخية فيما يروى عن هلاك قوم عاد وثمود . فإذا ما عرفنا أن منطقة الحجر كانت منطقة ثمود ، وأن هذه المنطقة منطقة بركانية كثيراً ما كانت تثور وتلقي بحممها على ماجاورها وأن «الحرات» هي فوهات تلك البراكين وأماكن حممها عرفنا لِمَ هلكت ثمود وزالت معظم آثارها من عالم الوجود[٤] .

(١) moritzy p, 28 .
(٢) نفس المصدر ص ٢٨ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) moritzy p, 28 .

والحرات هي مناطق بركانية خمدت براكينها وبقيت حممها وموادها التي كانت تقذفها ، وقد بردت منذ مدة قبل ظهور الإسلام ، إلا أن الدخان كان لا يزال يخرج من بعضها حتى في العصور الإسلامية . فقد ذكروا أن النيران كانت تخرج من حرة النار في جنوب شرقي المدينة ، وكانت تشاهد في عهد الخليفة عمر بن الخطاب[١] . وتحدث الناس عن نشاط بركاني ظهر فجأة في الحرة الكبرى التي تقع على مقربة من المدينة سنة ١٢٥٦ م . وقد دام ذلك عدة أسابيع ، وذكروا أن حمم هذه الحرة أخذت تسيل (Lave) وتزحف نحو المدينة حتى أصبحت على مسافة كيلو مترات قليلة من المدينة التي لم تنج منه إلا بمعجزة[٢] .

ولم نعد نسمع بحوادث بركانية مهمة منذ سنة ١٢٥٣ للميلاد في أكثر أنحاء شبه جزيرة العرب غير ما ذكرناه آنفاً . ففي هذه السنة حدث انفجار بركاني عظيم في منطقة عدن ثم خفت صوت البراكين منذ ذلك الحين ولم نعد نسمع بحوادث حرات تخرب وتدمر كما كانت تفعل في السابق . ومعنى هذا أن تطوراً جيولوجياً عظيما حدث في هذه المنطقة بدون شك[٣] .

وقد بحث العلماء في طبيعة البلاد العربية من حيث الوجهة الجيولوجية ورأوا أن هذه البلاد قد جابهت عدة انقلابات وتطورات أرضية حدثت فيها منذ العصور الجيولوجية حتى الآن . ورأى الجوابون آثاراً صدفية ومحاراً في الربع الخالي استدلوا منه على أن هذه المنطقة كانت مغطاة بالمياه ويجوز أنها كانت تحت مياه البحر[٤] .

وبنى المستشرقون على هذه الفرضيات العلمية نظرياتهم عن الأصل السامي وعن موطن الأصل السامي وهجرات الساميين . كما بحثوا عن موطن العرب الشماليين ، وموطنهم الأصلي هل كان

(١) moritzy p, 13 الطبري ج ١ ص ٢٩٨٢ (أوربية) .
(٢) Wusteufeld, Ge, medina moritza p, 14 p, 18
ابن إياس ١ ، ٩٤ .
(٣) moritzy p, 14
(٤) راجع ما كتبه الرحالة الانكليزي برتام توماس . ودوتي وفلبي وغيرهم عن وصف تربة جزيرة العرب .

فى اليمن أو فى شمال اليمن ، وهل كانت الكوارث الطبيعية هى العوامل الأساسية فى الهجرة أو عوامل أخرى[١].

تتحدث الكتب عن حادثة انفجار سد مأرب وكيف أن هذا الانفجار سبب جفاف منطقة كبيرة من أرض اليمن كانت تتغذى منه . وكيف تمزق الناس أيدى سبأ وكيف هاجرت القبائل من الجنوب نحو الشمال .

وقد أدى ذلك الجفاف والتحول إلى تبدى القبائل المستقرة وتنقلها من مكان إلى مكان على سنة الأعراب . وهى ظاهرة تحدث كثيراً فى شبه الجزيرة ، فتنتقل على أثرها العشائر المتحضرة إلى البادية حيث تتخذ عيشة البدو الرحل . وقد حدث مثل هذا التطور فى العصور الإسلامية أيضا ولاسيما فى الأوقات التى تردّت فيها الحالة السياسية وضعف فيها نفوذ الحكومة فلم يعد فى إمكانها صيانة الأمن ولا السيطرة على النظم الاقتصادية ؛ فكانت القبائل المتحضرة أو النصف متحضرة تضطر لحماية نفسها إلى الالتجاء إلى الصحراء حيث لا تصل إليها لهيب الحروب السياسية والثورات وحيث لا تضطر إلى الاشتراك فى حروب لا نفع لها منها ولا ضرر .

ويشاهد السواح فى الوقت الحاضر آثار بيوت ومنازل فى أمكنة قاحلة رملية لا يمكن أن يستقر بها الإنسان فى مثل هذه الظروف بأى حال من الأحوال . وقد كانت مأهولة فيما مضى كما يظهر ذلك من هذه الآثار . فكيف حل فيها هذا الخراب وحولها هذا التحول !

وفى المصادر اليونانية أسماء مدن وقرى رآها الكتبة اليونانيون وحلوا بها وقد أعجب بها هؤلاء . إلا أنها اندثرت فيما بعد ولم يبق منها أى أثر حتى عند ظهور الرسول الكريم . وفى المصادر العربية مثل هذه الأسماء أيضاً زالت من عالم الوجود . وقد أنشأ المسلمون عدداً من المدن والقرى لم يبق منها اليوم أى أثر . وقد حدث مثل هذا الحادث فى العصور الحديثة كذلك[٢].

إن الجفاف هو أعظم عدو هدد البلاد العربية وحارب الحضارة والعمران فى شبه جزيرة العرب . وهو الذى حول الجزيرة العربية إلى صحار رملية لا تصلح للانبات ولا للسكنى . وللجفاف عوامل مساعدة هى الشمس والتغير السريع فى درجات الحرارة وهبوب الرياح وتبدل مجارى المياه[١].

وقد بحث عن هذا العامل العالم المستشرق كيتانى فتوصل إلى هذه النتيجة ، وهى أن جو بلاد العرب قد تغير وتبدل ، ولما حل به الجفاف لم يعد فى إمكان الإنسان ولا الأجسام الحية البقاء . فتركت تلك الأراضى التى تحولت إلى صحراء مقفرة[٢].

والظاهر أن جو بلاد العرب كان مشبعاً فى الأزمنة القديمة التى سبقت الإسلام بالرطوبة وكانت الأرض مخصبة منبتة لوجود المياه ثم جف الجو وتوسعت منطقة الجفاف هذه وارتحل عنها السكان[٣].

جواد علي

(١) راجع أبحاث المستشرقين فى الهجرة مثل غويدى وكيتانى وبيكر راجع أيضاً المقتطف ج ٢ مجلد ١٠٥ تاريخ يولية ١٩٤٤ ص ١٢١ .

(٢) كما حدث فى تبوك عام ١٨٨١ م راجع moritzy p, 30

(١) نفس المصدر ص ٣٢ .

(٢) Leond coetani annali 11 l'arabia nello storia del movdo 16 Jan 1907 Becker vol 1 p,291

(٣) moritzy p, 36 .

إعلان

يعلن مجلس مديرية الشرقية عن حاجته إلى معلمين من الحاصلين على شهادة الكفاءة للتعليم الأولى أو الشهادة الثانوية قسم ثان من الأزهر الشريف . وتقدم الطلبات على الاستمارة رقم ١٦٧ ع . ح مصحوبة بالمؤهل الدراسى وشهادة الميلاد وصورتين فوتوغرافيتين مقاس ٦ × ٩ سم موقعاً عليهما منه وقد تحدد يوم ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ آخر ميعاد لتقديم الطلبات .

٥٠٤٩